صورة الفكر لدى جيل دولوز

حموم لخضر[1]

في معرض حديثه عن مساره الدراسي، يذكر جيل دولوز[*] أن تكوينه تم على يدي أستاذين، هما ألكيي (Alquié) وهيبوليت (Hyppolite) قد تأثر بهما كثيرا، لكن الأمر لم يعد كذلك فيما بعد؛ لأن الأول كان متأثرا بالفلسفة الديكارتية، والآخر كان هيغليا، بل أفضل شُراح هيغل (Hegel) في ذلك الوقت، فالبقاء ضمن دائرة الفلسفة الديكارتية والهيغيلية، هو ما كان يرفضه دولوز. خاصة بعد الحرب العالمية الثانية، لأنه كان يرى فيه تقوقعا داخل تاريخ الفلسفة، حيث أن الفلسفة كانت تكتفي بمداخل إلى ديكارت (Descartes) وكانط (Kant)، هيغل، هوسرل (Husserl) وهيدغر (Heidegger)،[*] لقد شكل تاريخ الفلسفة سلطة داخل الفلسفة والفكر عامة، حيث ما كان يُمكن التفكير دون قراءة أفلاطون (Platon) وديكارت، كانط وهيغل وغيرهم،"فتاريخ الفلسفة كان يمارس دورا قمعيا في الفلسفة، بل إنه الأوديب الفلسفي، حيث لم يكن ليجرؤ أحد على التكلم باسمه الخاص ما دام لم يقرأ هذا أو ذاك"،[2] لكن – حسب دولوز – إنه "من حسن الحظ كان هناك سارتر (Sartre)، لقد كان يمثل الخارج بالنسبة لنا، كان بالفعل التيار الهوائي الخارجي،كان شيئا من الهواء الصافي".[3]

كان لهذا التاريخ طابعا سلطويا، حيث يقول دعوني أفكر من أجلكم، من خلال قواعد وتقاليد وصور أمنحها لكم. من هنا، نفهم أهمية الأفكار الشمولية والمنهج والسؤال والجواب، الحكم والأفكار الصحيحة والامتلاك الدائم لها. هذا ما جعل الفلسفة متواطئة مع النظام القائم في تبرير الواقع المفروض والقيم السائدة، بل لقد كانت هي اللغة الرسمية للدولة.حتى وإن أصبح تاريخ الفلسفة متجاوزا فيما، حيث لم يعد بإمكانه القيام بالمهمة المنوطِ بها تجاه الدولة، فإن هذه الأخيرة – حسب دولوز– بحثت عن منافسين جدد للفلسفة، مثل الإيبستيمولوجيا والماركسية، كذلك التحليل النفسي وتحالفه مع اللسانيات،" إنها الأجهزة الجديدة للسلطة داخل الفكر ذاته، وأشكال جديدة للأفكار الصحيحة ".[4]

لذلك كله، بدأ دولوز أعماله بتاريخ الفلسفة، لما كان هذا الأخير يفرض نفسه ،حيث كانت الكتابة في الفلسفة لا تحيد عن المداخل التي ذكرناها سابقا، ولم يكن دولوز يتوفر بعدُ على الوسائل والإمكانات التي تخلصه من قبضة هذا التاريخ، وبالتالي الكتابة لحسابه الخاص؛ أي وضع فلسفة خاصة به، لأن هناك "فرق أن تكتب في تاريخ الفلسفة وأن تكتب في الفلسفة"؛[5] فتاريخ الفلسفة يفرض عليك أن تنطلق من الأسماء الكبيرة واللامعة فيه وأن تعود إليها، وأن لا تتجاوز المناطق التي حددها لك للاشتغال الفلسفي، حتى يكون فكرك منسجماً مع ما يهتم به هذا التاريخ؛ كالأنساق الفلسفية الكبرى والمقولات الميتافيزيقية، المذاهب والإيديولوجيات...الخ. أما أن تكتب في الفلسفة؛ يعني هذا حسب دولوز أن تكون مُبدعا، لا يعني هذا إبداع **الأفكار الصحيحة، بل الأفكار الجديدة**. حيث "لا ينبغي أن نبحث عما إذا كانت فكرة ما صحيحة أو خاطئة، بل ينبغي البحث عن **الأفكار المختلفة والجديدة**، كشيء يمر بين الاثنين لا يكون في الأولى ولا في الثانية".[6]

حتى وإن كان دولوز قد بدأ أعماله في تاريخ الفلسفة فهو لم يشتغل على المفكرين والفلاسفة الذين أُعتبروا في ذلك الوقت أقطابا في تاريخ الفلسفة، كأفلاطون وديكارت وكانط وهيغل، بل كان يهتم بمفكرين وفنانين وأدباء كانوا مغمورين ومهمشين، كانوا يبدون للغير أنهم يشكلون جزءا من تاريخ الفلسفة ولكنهم ينفلتون منه جزئيا أو كليا أمثال سبينوزا (Spinoza) وهيوم (Hume) وبرغسون (Bergson) وبركلي (Berkeley)، نيتشه (Nietzsche)، مارسيل بروست (Marcel Proust) [*].يقول دولوز: "لقد اشتغلت طويلا في تاريخ الفلسفة وقرأت حول هذا المفكر وذاك، لكنني خرجت من تاريخ الفلسفة بفضل اشتغالي بمفكرين اعترضوا على هذا التصور التقليدي لتاريخ الفلسفة، وأخيرا أخرجني نيتشه الذي قرأته متأخرا من كل هذا".[7] نيتشه أخرج دولوز من قبضة تاريخ الفلسفة، بل تاريخ الميتافيزيقا الذي يسجن الفكر والحياة بواسطة قيم ومثل متعالية، يخترعها، ثم ما يلبث أن يفرضها كقانون، كنسق ومذهب يتعارض مع الحياة وقواها الحية النابضة، لقد كان هؤلاء المفكرون يتوفرون على بنية هشة، ومع ذلك تخترقهم حياة فائقة، فهناك علاقات فيما بينهم، وكأنما شيء ما يجري بينهم بسرعات وتكثيفات مختلفة. هذا الشيء هو ما يسميه دولوز فلسفة الحياة والحيوية التي تجمع هذه الأسماء، ففلسفة هيوم لم تكن فلسفة ذاتية بل بمثابة " نقدِ حاد للتمثل (Représentation)، حيث لا يقوم هيوم بنقد للعلاقات، بل بنقد للتمثلات،[8]" وكذلك توجد فلسفة للحياة عند سبينوزا،" ترفض كل ما يفرقنا، وما يبعدنا عن الحياة، وكل القيم

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المتعالية التي ضد الحياة، التي هي مرتبطة بشروط وشفافية وعيينا".[9] وهناك وحدة للحياة والفكر عند نيتشه، ذلك أن أشكال الحياة توحي بطرائق للتفكير، وتخلق طرائق الفكر مسارات في لحياة .فالحياة تبعث النشاط والحركة في الفكر، والفكر بدوره يؤكد حيوية الحياة، "هذا الانسجام بين الحياة والفكر، والذي يعود إلى ما قبل سقراط، لم نعد نملك حتى ولو فكرة عنه. لم يعد لدينا سوى شكل من التنافر بين الحياة والفكر، حيث يعمل الفكر على تشويه الحياة فيما هو يعتقد أنه يُعقْلِنَهَا".[10]

ومع ذلك كانت هذه الأعمال المنتمية إلى تاريخ الفلسفة والتي قدمها دولوز عن هؤلاء المفكرين والأدباء والفنانين، لا تنفصل عن فكره الخاص ولا عن اهتمامه، المنصب في تلك الفترة على **نقد صورة الفكر**(**Image de la Pensée**) التي كانت سائدة في ذلك الوقت، حيث كانت تقصي كل ما هو مختلف، ولا تسمح بتفكير الاختلاف. حيث يقول دولوز عن اهتمامه واشتغاله بهؤلاء المفكرين، " لقد ألفت كتبا كانت بمثابة **بلورة لفكري الخاص**، كان اهتمامي مركزا على إبراز ممارستهم للفكر بوصفه مُعارضاً لصورة الفكر التقليدية".[11] ويضيف دولوز: "يهمني هيوم وبرجسون وبروست كثيرا، لأن لديهم عناصر عميقة لصورة جديدة في التفكير. وهناك شيء عجيب في الطريقة التي يقولون لنا بها: لا يدل تفكيركم على ما تعتقدونه".[12] لكن هذا الاهتمام بنقد صورة الفكر سيظهر بشكل أكثر وضوحا مع بداية تأليفه لكتب خاصة به، مثل:

الاختلاف والتكرار ومنطق المعنى.

أولا: المراحل الفكرية في أعمال جيل دولوز

عموما يمكن الحديث عن أربع مراحل أو فترات في مسيرة دولوز الفلسفية وهي:

– **المرحلة الأولى**: مرحلة تاريخ الفلسفة، اهتم دولوز فيها بالفلاسفة و المفكرين الذين ذكرناهم سابقا، حيث تعامل مع تاريخ الفلسفة ليس بشكلٍ تأمليٍ، بل كما يسميه هو فن البورتريه (Portrait) في الرسم، حيث لا تكون المحاكاة استنساخا ولا تشابها وتقليدا، بل إنتاجا واختلافا، وحيث " لا ينبغي لتاريخ الفلسفة تكرار ما يقوله فيلسوف ما، بل عليه إظهار ما لا يقوله وهو ماثل مع ذلك فيما يقوله".[13] هذا ما جعل هؤلاء المفكرون يخرجون مع دولوز بصورة غير التي ألفناها عنهم، و**كأننا نكتشفهم لأول مرة**، لذلك يخصص قسما كبيرا من إنتاجه الفكري من أجل قراءة هؤلاء المفكرين، بل المبدعين حسبه، حيث لا نستطيع التمييز بين أفكاره الخاصة وأفكارهم، فهو " يكتب كما لو أنه يتعامل مع فرديات لا شخصية (Singularités Impersonnelles) ".[14]

لقد كان دولوز يَتَكونُ بِتَكوُنِ سواه من الأدباء والمفكرين والفنانين الذين إشتغل عليهم، وذلك في مرحلة تاريخ الفلسفة، حيث لم يتناولهم كشارح قارئِ فقط، بل كان يحاول إظهار أفكاره بأسلوب حر غير مباشر وبتوسط من اشتغل عليهم من المفكرين، " أي الكتابة لصالحه الخاص مقتبسا أراء الأخر، إنه الشرح والكتابة معا، بأسلوب حر غير مباشر".[15]

– **المرحلة الثانية**: هي مرحلة الفلسفة الخاصة، التي بدأت منذ (1969) مع كتاب **الاختلاف والتكرار**، حيث يقول دولوز "بعد دراساتي لهيوم وسبينوزا ونيتشه [(*)] وبروست والذين أدهشوني، جاء **الاختلاف والتكرار** كأول **كتاب لي في الفلسفة**".[16] لقد كان هذا الكتاب أطروحتة الجامعية لنيل درجة الدكتوراه، لذا كان ذو أسلوب أكاديمي صعب القراءة والفهم. ثم في كتابه الثاني في هذه المرحلة وهو **منطق المعنى** الذي جاء متحررا شيئا ما من الضوابط الأكاديمية، حيث كان مكونا من سلاسل وليس فصول. أما الكتب الأخرى فكانت ثمرة لتعاونه مع المحلل النفساني فليكس غوتاري (**Félix Guattari**)،[(*)] خاصة في الكتابين المهمين وهما **ضد أوديب، الرأسمالية والفصام الجزء الأول** سنة (1972) ثم **ألف مسطح، الرأسمالية والفصام الجزء الثاني** في (1980). فالفلسفة الخاصة حسب دولوز "كمرحلة ثانية لم يكن لها **أن تبدأ و تبلغ أمرا قط دون فليكس** ".[17] كانت فلسفة دولوز الخاصة تندرج ضمن تيار فلسفة الاختلاف، وهو لذلك " يرفض أن تُنسب فلسفته إلى النوع من الفلسفة التي تبحث عن الحقيقة فقط، بل إنه ينظر إلى الفلسفة باعتبارها **آلة حرب** وذلك ضد كل الأشكال المدافعة عن الحقيقة المطلقة، عن السلطة، وعن الوحدة، ولذلك يفضل الحديث عن **الجذمور** والمتعدد، عن الأقليات وعن المنسي".[18]

– **المرحلة الثالثة**: وهي المرحلة التي اشتغل فيها دولوز على الأعمال الفنية، كالرسم والسينما والأدب، تلك الأعمال التي وفرت له إمكانات جديدة للبحث عن مسارات الإبداع في ميادين الألوان والخطوط والصور، ومع ذلك كانت هذه الأعمال في الفلسفة ولا شيء غيرها، فالمفهوم الفلسفي حسب دولوز يتوفر على بعدين آخرين "هما المؤثر الإدراكي والمؤثر الانفعالي، فالروائيون الكبار الانكليز أو الأمريكان وكليست (Kleist) وكافكا (Kafka)[(*)] يكتبون بالمؤثرات. فالمؤثر الإدراكي والمؤثر الانفعالي والمفهوم، ثلاث قوى متلازمة تنتقل من الفن إلى الفلسفة وبالعكس".[19]

المرحلة الرابعة: مرحلة **ما هي الفلسفة ؟**، وهي مرحلة الشيخوخة، كما يسميها دولوز، حيث يُعد هذا الكتاب خلاصة مسيرته الفلسفية، لذلك أَخَّر السؤال ومعه الإجابة إلى أن مارس التفلسف

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

في حقول مختلفة،" لعل إبداع المفاهيم، أول **تعريف جوابي** على سؤال: ما هي الفلسفة ؛يُسجله تاريخ الفلسفة. إنه يُخرِج الفكر من حلقة سؤاله عن أشباهه، إلى سؤاله عن ذاته لكن عبر كل الأغيار. عندئذ سيلقى ذاته دائما مختلفا وفجائيا (...) حيثما لا يعود يكتفي دولوز بتظهير المفاهيم من نصوص المبدعين، فلاسفة وشعراء وفنانين وروائيين، فإنه يدع مفهومه الخاص، يتحدث عن نفسه قليلا، **عن فرادة تجربته**"،[20] ليقضي بذلك دولوز شيخوخة سعيدة كما تمناها .

لقد طرق دولوز كل هذه المجالات المختلفة من الفكر والفنون، دون أن يحمل معه أي أفكار مسبقة أو مناهج جاهزة، حيث كان يُغيّر مفاهيمه باستمرار، لضرورات تُمليها صورة الفكر التي سعى إلى نقدها أو إقامتها من جديد، فهو دائم التجديد في الأسلوب والمفاهيم .

لكن من أين تأتي الحاجة الدائمة لخلق مفاهيم جديدة؟. يرى دولوز أن صورة الفكر التي تنشد التغيير باستمرار تتطلب ذلك، أي الفلسفة كنشاط مستمر لإبداع المفاهيم. مفهوم صورة الفكر ظهر لدى دولوز منذ كتابه **نيتشه والفلسفة**، حيث إنه لا يقصد به طريقة معينة في التفكير، بل هو ما يفترض الفكر وهو ما يسبق التفكير، فنحن " نعيش على صورة معينة للفكر، حيث تكون لدينا قبل أن نفكر فكرة مبهمة عَمَا يَعنيه التفكير، عن وسائله وأهدافه"،[21] صورة الفكر هي نظام من الإحداثيات والاتجاهات، أي التوجه في الفكر، صورة الفكر مثل **الافتراض في الفلسفة** (le présupposé de la philosophie)، هذا الافتراض ليس فهما لا فلسفيا، بل "هو فهمٌ قبل فلسفي (Pré-Philosophique). إن صورة الفكر هي التي توجه خلق المفاهيم فهي تشبه الصرخة في حين أن المفاهيم غناء".[22] كما أن صور الفكر لا تتعارض فيما بينها،" لكن تعين اتجاهات وممرات، ذلك أن الفكر ذو خاصية طوبولوجية".[23]

يعتبر مفهوم صورة الفكر لدى دولوز مفهوما محوريا، ويمكن القول إنه يُعادل في ذلك أهمية مفهوم **الايبستيمي** لدى ميشال فوكو(Michel Foucault)،[*] وذلك في البناء الفلسفي لكليهما، مع الاختلاف بينها في أن مفهوم صورة الفكر هو ذو طابع جغرافي طوبولوجي أكثر منه تاريخي كما هو الحال مع مفهوم الايبستيمي،[*] ولا يتعلق بمرحلة تاريخية محددة، بل يشمل ما يُسميه دولوز إحداثيات ومسطحات وأفق وتوجهات الفكر عامة، هو مفهوم ظل منذ البداية يُؤطر مسار دولوز الفكري، حيث يقول دولوز: "أعتقد أن الأهم كان بالنسبة لي هو البحث عن صورة للفكر، وذلك ما حاولت تحليله في **الاختلاف والتكرار** ثم في **بروست والعلامات** "،[24] فما كان يهم دولوز هو وصف ممارسة الفكر عند كاتب ما ؛من حيث **تعارضها مع صورته التقليدية** التي وضعتها الفلسفة في الفكر وشيّدتها لإخضاعه ومنعه من الاشتغال. ويميّز دولوز مفهوم صورة الفكر عن المنهج، وعن النسق والمذهب. لأن صورة الفكر نفسها تخضع لصيرورة واحدة تشمل المفاهيم وبقية عناصره الفلسفية، ذلك أنه كانت هناك صورة للفكر عبر التاريخ، وقد تغيرت كثيرا، فصورة الفكر ليست بمثابة المنهج، بل هي أعمق من ذلك، هي التي تفترض نسقا من الإحداثيات والحركات والتوجهات التي تمثل ما يعنيه التفكير، "صورة الفكر هي بمثابة صورة خفية له، حيث ينبغي له أن يعمل عبر تطوره وتفرعه وتحولاته على إبداع المفاهيم الجديدة، لا تخضع لضرورة خارجية، بل **للصيرورة** التي تندرج فيها كل مسائل الفكر".[25]

ثانيا : نقد الصورة الكلاسيكية للفكر:

سنبدأ بتحليل ما يسميه دولوز نقد مسلمات صورة الكلاسيكية للفكر التي ظهرت في كتبه الأولى، وذلك قبل لقائه بفيلكس غوتاري، ثم نتعرض إلى نقد هذه الصورة ولكن من وجهة نظر فلسفة الاختلاف، التي تُركز على نقد التمثل وفلسفة الذات، وذلك باعتبار دولوز هو واحد من أقطاب هذه الفلسفة، إضافة إلى ميشال فوكو وجاك دريدا (Jacques Derrida).

- **مسلمات صورة الكلاسيكية للفكر:** سعى دولوز إلى نقد صورة الفكر الكلاسيكي، وذلك عبر الكشف عن المسلمات التي تقوم عليهاهذه الصورة الكلاسيكية الدوغمائية للفكر هي صورة أخلاقية حسب دولوز، لأن الأخلاق هي ما يجعلنا نتصور أن للفكر طبيعة طيبة، وأن المفكر يمتلك إرادة طيبة. "صورة الفكر التقليدية هي صورة دوغمائية أرثوذوكسية، أخلاقية، وهي صورة وحيدة تؤلف المفترض المسبق للفلسفة عامة".[26] ويرى دولوز أننا لا نستطيع نقد وتجاوز هذه الصورة الوثوقية للفكر، التي هيمنت طويلا على تاريخ الفلسفة ،من دون الكشف عن المسلمات التي تقوم عليها هذه الصورة، وهي ثمان مسلمات يذكرها بالتفصيل في الفصل الثالث من كتابه **الاختلاف والتكرار**، وهي :

1- مسلمة المبدأ أي الطبيعة المستقيمة للفكر والإرادة الطيبة للمفكر: نستطيع أن نفهم ذلك بالرجوع إلى محاورة (**Théétète**) لأفلاطون وكتاب **التأملات في الفلسفة الأولى** لديكارت و**نقد العقل الخالص** لدى كانط، حيث إن الفكر بطبيعته مستقيم، وهو الممارسة الطبيعية لملكة ما، وهي وحدة كل الملكات الأخرى أي الذات المفكرة، لذا فقانون الفكر يفترض مسبقا الطبيعة الطيّبة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وصفة الحقيقي للفكر والمفكر على السواء، مهما كانت صعوبة تحقيق هذا في الواقع. لذا يشتغل دولوز على مفكرين مغمورين، ولكن يُغيّرون من طبيعة صورة الفكر من خلال توجيه النقد لمسلماتها التي لم يَطلْها النقد من قبل، حيث "يُشيِّد بروست صورة للفكر في الفلسفة، ينتقد ما هو جوهري في الفلسفة الكلاسيكية العقلانية، أي مفترضات هذه الفلسفة، حيث يفترض الفيلسوف، وبِطيبة، أن المفكر يريد الحق ويحبه ويرغب فيه، ويبحث عنه بصورة طبيعية".[27] فالنقد كان دائما يطال الفلسفة ورُؤيَتها للفكر والوجود، دون نقد ما يؤسس هذه الرؤية بالذات .

2- مسلمة الحس المشترك والحس السليم: الحس المشترك هو بمثابة توافق الملكات في النظر إلى موضوع معين ، يعطينا دولوز مثالا على ذلك في توافق ملكات التخيل والذاكرة والبصر واللمس حول قطعة الشمع في مثال ديكارت، وبالتالي تكون قطعة الشمع هي نفسها التي أتخيلها وألمسها وأتخيلها، إن الحس المشترك يفترض ذاتا مفكرةً وواحدة، ومُوحدة لكل الملكات، بل هوية للذات التي تعين بدورها هوية الموضوع والتي لا تكون إلا بعد اتفاق الملكات جميعا حول تعيين هذا الموضوع بعينه، الاتفاق يعني أن يظهر هذا الشيء مطابقا بالنسبة لجميع الملكات، والحس السليم هو ما يحدد إسهام كل ملكة في هذا الاتفاق، وفي النظر إلى أي موضوع معين.

3- مسلمة النموذج: أي التعرف الذي يعمل على التوفيق بين كل الملكات حول موضوع يفترض أنه هو (عينه Le Même)، ويبقى هُو هُو، أي الموضوع عينه الذي يمكن رؤيتهو لمسه وتذكّره وتخيّله، أي أننا نفكر عندما نتعرف على شيء ما، وفي نظر دولوز لم نخرج هنا من الكهف الأفلاطوني، ولا من التجربة البسيطة التي تمدنا بها الآراء، لقد كان الحس المشترك فلسفيا عند كانط، من خلال تأسيس هوية للأنا في أنا أفكر توافق جميع الملكات وتتفق حول شكل موضوع مفترض هو الشيء عينه، بحيث يصبح " الحس المشترك بمثابة معيار للهوية المتجسد في الأنا المتعالية، والحس السليم هو معيار للتقاسم من وجهة نظر التجربة. لا يمكن لهذا المستوى الثلاثي المفترض لصورة الفكر، أي الفكر المستقيم، والحس المشترك والسليم، والتعرف كنموذج متعال إلا أن يشكل فكرا أورثوذوكسيا".[28]

4- مسلمة التمثل: أي تظل الأنا أفكر هي المبدأ الأول للتمثل، ومصدر ووحدة جميع الملكات الأخرى: التصور، الحكم، التخيل، التذكر، الإدراك وهي بمثابة فروعا للكوجيتو الديكارتي، ويظل الاختلاف خاضعا للهوية والذاتية، للوحدة والتشابه، "لهذا يتميز عالم التمثل بعجزه عن تفكير الاختلاف في ذاته وفي نفس الوقت عن التفكير في التكرار".[29] بالنسبة لدولوز، رغم أن كانط كان يبدو مسلحا لنقد صورة الفكر الدوغمائية من خلال إحلاله مفهوم الوهم محل الخطأ، كأوهام داخلية في العقل عوضا عن كونها أخطاء خارجية، وفتح الكوجيتو على الزمن، إلا أنه لم يستطع التخلي عن المسلمات المسبقة لصورة الفكر، فبدلا من تجاوز الحس المشترك راح يعمل على تكثيره في صورة العقل والفاهمة والمخيلة، والتي شكلت لديه حسا مشتركا منطقيا، حيث ظلت الفاهمة هي الملكة التشريعية التأملية وتُخضع الملكتان الأخريتان لها، ولم يطرح كانط أبدا هذه الملكات على محك التساؤل "طرح كانط فقط استعمال لهذه الملكات".[30]

5- مسلمة الخطأ: إن الفكر باعتباره ذا إرادة طيبة وطبيعة مستقيمة فهو يقع في الخطأ عندما يعتبر الزائف صوابا، ويعتبر الفكر الخطأ نتيجة لقوى خارجية تعترضه وبالتالي يُشكل ظاهرة سلبية على الفكر محاربتها، وحتى الأشكال الأخرى للخطأ فتعتبرها صورة الفكر وقائع خارجية وغير قادرة على الاعتراض على صحة الفكر، مثل الجنون والحماقة والخبث، ولكن دولوز يعتبر الحماقة كبنية داخل الفكر وليست واقعة خارجية.

6- مسلمة القضية المنطقية: إن الخطأ والصواب وفق الصورة الدوغمائية للفكر لا يقترنان إلا بالإجابات، ولهذا فإننا في الفلسفة لا نتكلم إلا عن قضية ذات معنى أو قضية ليس لها معنى. يميز دولوز في القضية بعد التعبير (Expression) الذي بناء عليه تنطق القضية. وبعد التعيين أو التسمية (Désignation) الذي يشير إلى مواضيع ينطبق عليها المنطوق أو المعبر، الأول هو بعد المعنى، والثاني بعد الصادق والكاذب، أي أن الأول هو شرط الثاني، أي شرط الماصدق، فالشرط أوسع من المشروط، ولكن المعنى يؤسس الصدق ويجعل كذلك الخطأ ممكنا، حيث تبقى قضية كاذبة تمتلك معنى، أما اللامعنى فهو من لا يمكنه أن يكون كاذبا أو صادقا، ما دام المعنى هو شرط الصدق، أي أن سؤال الصدق والكذب هو متعلق بما تشير إليه المفردات والمنطوقات وليس ما تعبر عنه، "نحن أمام وضع غريب، نكتشف المعنى ولكن نُرجعه إلى حالة نفسية أو شكلانية منطقية، وعند الحاجة نضيف إلى القيم التقليدية للصادق والكاذب قيمة جديدة هي قيمة اللامعنى (...) على الشرط أن يكون شرط التجربة الواقعية وليس التجربة الممكنة، وأن يكون تكوينا ضمنيا وليس شرطا ظاهريا، والحقيقة من كل الوجوه هي إنتاج وليست مطابقة، تناسلية وليست فطرة وتذكرا".[31]

7- مسلمة الحلول: إن صورة التقليدية للفكر تجعلنا نعتقد أن المشكلات تكون دائما جاهزة وأنها تتلاشى وتختفي داخل الإجابات

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وفي الحلول، وأن نشاط الفكر والصواب والخطأ لا يبدآن إلا مع البحث عن الحلول، بل يبدأ هذا النشاط حسب دولوز ابتداء من طرح المشاكل، أي أساسا بمدى صحة طرح المشاكل نفسها، وليس بمدى قابليتها للحل كما يعتقد الوهم الفلسفي، فالمهم هو شرط المسألة الداخلي (صحة طرحها) وليس الخارجي فقط (قابليتها للحل)، ما ينقص هو الخاصية الداخلية للمشكلة. إن المشكلات هي اختبارات وانتقاءات، إنتاج للحقيقة، فهي العنصر التفاضلي في الفكر، لذا يدعونا دولوز لتجاوز الهندسة الإقليدية وذلك إلى الهندسة التفاضلية، هندسة ريمان (Riemann)، فالمشكلة هي في وقت واحد متعالية ومحايثة بالنسبة إلى حلولها، هي متعالية لأنها تقوم على نظام من الروابط المجردة والصلات التفاضلية بين عناصر تكوينية، ومحايثة لأن هذه الروابط والصلات تتجسد في علاقات راهنة لا تشبهها وتحدد من خلال حقل الحل .

8- مسلمة النهاية والنتيجة: وتعني إخضاع التعلم للمعرفة والفكر للمنهج، بمعنى المطابقة "بين صورة الفكر والمعرفة، فالفكر معرفة وليس تعلما لكن حسب هذا المفترض لا يعدو التعلم سوى همزة وصل بين الجهل والمعرفة. والتعلم هو مجرد لحظة ومجرد شرط من لحظات ومن شروط المعرفة".[32] بمعنى آخر أنه التعلم لا يُسهم في مغامرة الفكر حسب صورة الفكر التقليدية.

ثالثا– الصورة الجديدة للفكر:

لقد كانت تلك هي مسلمات صورة الفكر التقليدية الدوغمائية التي تعتبر "بمثابة تقعيدات مورست على الفكر باسم المنهجية والاستقامة. بوصفه تاريخا نظريا يغري بكل أنواع الاغتراب الذي ينفي الفرق (الاختلاف) كنقطة إثراء فكرية هامة ليؤسس لمبدأ النمذجة التماثلية المبنية على التصور الواحد النسقي"،[33] لكن دولوز عمل على قلب هذه المسلمات لتحرير الفكر من المنغلق ومن الشمولي والكلي، ومن النموذج والمثال والمتماثل والوحدة والأساس، ليفتحه على **اللافلسفي**، والهامشي و**المختلف**. لقد سعى للبحث عن صورة جديدة للفكر، تعتمد على الاختلاف الذي يخلص الفكر الفلسفي من كل انغلاق منهجي ونسقي، من الواحد لصالح المتعدد والفريد، الذري والهامشي...إلخ، صورة جديدة للفكر، يقود التفكير من خلالها إلى اكتشاف إمكانات جديدة للحياة، واختراعها ذلك أن "ممكنات الحياة أو أنماط الوجود لا يمكن ابتكارها سوى على صعيد المحايثة، ولعل ما يميز فلسفة دولوز هو انسكانها بقوى الحياة لأن الفكر ليس ببساطة شأنا نظريا بل مشكلا متعلقا بالحياة، إنه الحياة بالذات".[34]

لكن إرساء هذه الصورة الجديدة للفكر التي تتخلى عن المسلمات السابقة لصورة التقليدية للفكر، ليس من أجل وضع مسلمات أخرى تعوض المسلمات السابقة الذكر، بل فكر بدون صورة كما يسميه دولوز؛ أي ذلك الوجه الآخر للفكر، الذي يتخلى عن النموذج والمركز والواحد، ويلتفت إلى الهامش والمقصي والمتعدد والمحلي، حيث لا تصدر الأفكار عن الطبيعة المستقيمة للفكر والإرادة الطيبة للمفكر، وإنما سيترتب الفكر عن العنف الذي يرغمه على التفكير، "فبروست لا يعتقد بأن الفرد، أو حتى أي عقل خالص مفترض، يميل بطبيعته نحو الحقيقي، أو أنه يتمتع بإرادة الحقيقة. فنحن لا نبحث عن الحقيقة إلاَّ إذا كنا مُصِّرون على القيام بذلك نتيجة موقف محدد، أي حينما نتعرض لنوع من العنف يدفعنا نحو ذلك البحث. من الذي يبحث عن الحقيقة؟ الغيور، تحت ضغط أكاذيب المحبوب. فهناك دائماً عنف علامة ترغمنا على البحث، وتحرمنا من الاستقرار. ذلك لأن الحقيقة غير قائمة بالتوافق، ولا بالإرادة الحسنة، لكنها تفضح نفسها عبر علامات لاإرادية".[35]

رغم أن العلامات تتميز عن بعضها البعض، إلا أنها تشكل مادة لهذا العالم، فكل شيء منتظم ضمن العلامات وأنظمتها والتي تظهر من خلال شخوص، مواد، أو مواضيع، حيث لا يمكننا أن نكتشف أية حقيقة، ولا نستطيع تعلم أي شيء، ما لم نفك رموز هذه العلامات والعمل على تأويلها.فضد" فكرة المنهج الفلسفية، يطرح بروست فكرة "الإرغام" و"الصدفة". فالحقيقة هي نتاج لقاء مع شيء ما يرغمنا على التفكير، والبحث عما هو حقيقي. فصدفة اللقاءات، وضغط الإرغامات هما موضوعي بروست الهامين، والعلامة هي ما يشكل موضوع اللقاء، وما يمارس علينا ذلك العنف. كذلك فإن صدفة اللقاء هي ما يضمن ضرورة ما يتم التفكير به".[36] إن الإنسان الذي يبحث عن الحقيقة لا يفعل ذلك إلا مرغما ومجبراً. ولا يبحث عنها إلا من خلال لقاء ما، وارتباطها بعلامة ما. فما يسعى إليه هو: تأويل، فك رموز، ترجمة، ومن ثم العثور على معنى العلامة.

بل لا يكفي –حسب دولوز– بأن تكون الفلسفة تشخيص أعراض وعلامات فقط .بل إن العلامات نفسها تحيل على أنماط حياة وإمكانات وجود. فالحياة متدفقة ونابضة،ففي عمله حول رواية بروست " البحث عن الزمن الضائع" يولي دولوز أهمية للعلامة عوضا عن الكلمة، فالنص مليء بالكلمات وما يغيب هو العلامات، لذا يجب البحث عنها بغية تأويلها وتفسيرها، فالعلامات هي أكثر مرونة من الكلمات وهي ما يُمكن من فتح النص على أفاق جديدة تظل الكلمات تعجز عن بلوغها، بل ينبغي التعلم من العلامات، لأنها هي مدار الإبداع، حيث "لا يستطيع الإنسان أن

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يكون نجارا ما لم يكون له إحساس اتجاه علامات الخشب، ولا يستطيع أن يكون طبيبا ما لم يكن يملك إحساسا بعلامات المرض، إن الموهبة استعداد أولي اتجاه العلامات"،[37] فهذه الأعمال تقتضي وجود موهبة لممارستها، لكن أن تكون نجارا مبدعا أو طبيبا ماهرا يجب أن تتقن تلقى العلامات ومن ثمة تأويلها، فالإبداع هو حالة يشترك فيها كل حسب اختصاصه سواء كان المر كاتبا أو فنانا أو طبيبا أو نجارا ...الخ،هذه الحالة تتعلق بحسن تلقى العلامة وفك رموزها، فالأمر يتعلق بالتعلم وليس الذاكرة كما يرى دولوز.

حيث لا يكون التفكير نتاج انغلاق الذات على نفسها، بل انفتاحها على الخارج، ولا يسعى التفكير إلى تجنب الخطأ، بل محاربة البلادة والبلاهة والابتذال، أي ما يُهدِدُهُ على الحقيقة، وتتكون الأفكار من خلال حركة التعلم وليس كنتيجة للمعرفة واليقين والتمثل. ذلك أن اليقينيات لا تدفعنا للتفكير مثلما تدفعنا إليه الدهشة والشك والريبة، بل والعنف، فاليقين عاجز عن توليد فعل التفكير في الفكر، وفعل التفكير هو ما يخلق صورة جديدة له، حيث إن الفكر لا يفكر إلا مكرها ومرغما، وهذا لا يتأتى دون نقد مفهوم التمثل الذي تقوم عليه صورة التقليدية للفكر، "لقد كان الجهد الأكبر للفلسفة قائما على جعل التمثل لا متناهيا. باختراع التقنيات اللاهوتية والعلمية والجمالية التي تسمح بالاستحواذ على الاختلاف في ذاته. يتعلق الأمر بإسالة القليل من دم ديونيزوس في شرايين أبولون(*)".[38]

نستنتج مما سبق أن دولوز كان قد بدأ أعماله بتاريخ الفلسفة لما كان هذا الأخير يفرض نفسه ،على الفلاسفة، حيث لم يكن يتوفر بَعدُ على جهاز مفاهيمي يُمكنه من بناء فلسفة خاصة به، لذا عمل على التخلص من هذا التاريخ، أي تحطيم الصورة الدوغمائية الوثوقية للفكر القائمة على التمثل والهوية والتشابه، وكذلك نقد المسلمات التي تقوم عليها، والإطاحة بآلية التمثل باعتبارها آلية فكرية، وهذه الصورة الدوغمائية للفكر هي صورة أخلاقية، كما يرى نيتشه ذلك لأن الأخلاق هي ما يجعلنا نعتقد في الطبيعة الطيبة للفكر، وأن المفكر يمتلك إرادة طيبة، ولذلك تعمل هذه الصورة على أن يظل الفكر منغلقا ، ليسجن الفرد والإبداع معه.

لذلك فإن دولوز لم تستهويه الأسماء الكبيرة واللامعة في تاريخ الفلسفة، بل التفت إلى مبدعين في الفلسفة والأدب والفن والتحليل النفسي، ظللوا مغمورين ومهمشين، لكن شكلوا له في الحقيقة مخرجا من تاريخ الفلسفة، لأنهم مبدعون كبار، فكروا في الحياة وإثباتها والصيرورة والحيوية، أمثال لوكريس وسبينوزا وبرغسون ولوك، وبركلي، ولويس كارول، ونيتشه وهيوم،...إلخ، فدولوز يقتحم كل هذه مجالات الفكر المختلفة دون أن يحمل معه أي أفكار مسبقة ومناهج جاهزة، بل يعتمد على ما توفره له هذا المجالات من مفاهيم وشخصيات مفهومية وسطح للمحايثة. من أجل تحرير الحياة من كل ما يسجنها.

عمل دولوز على إرساء صورة فكر جديدة تعتمد على الاختلاف الذي يمنع الفكر الفلسفي من كل انغلاق منهجي ونسقي وتحريره من الكلي والشمولي والواحد لصالح المتعدد والفريد والذري والهامشي...الخ، إنه البحث عن إمكانات جديدة للتفكير الفلسفي، من خلال صلة مع اللافلسفي. تقوم صورة الفكر الجديدة التي سعى دولوز إلى بنائها على ممارسة الفلسفة كتجريبية متعالية ومنطقا للتعدد، صورة جذمورية، تقوم على الأفقية والجغرافيا، المحايثة والترحال في مقابل فلسفة التعالي القائمة على منطق الشجرة، والتراتبية والعمودية، التاريخ، والغائية. إنه الترحال الذي يدعو دولوز أن يكون التفكير عليه، الترحال إلى مناطق ظلت بعيدة عن الاستكناه الفلسفي والتناول الفكري.إنه اكتشاف وابتكار إمكانات جديدة للحياة؛ الحياة في صيرورتها .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الهوامش:

1. أستاذ بقسم الفلسفة، كلية العلوم الاجتماعية ، جامعة عبد الحميد بن باديس، مستغانم.

* ولد جيل دولوز (Gilles Deleuze) في 18 جانفي 1925 بباريس،. في 1969 قدم الأطروحة الأساسية للدكتوراه بعنوان: الاختلاف والتكرار (*Différence et répétition*)، تحت إشراف موريس ده كونديلاك (Maurice de Gandillac)؛ والأطروحة الثانوية التي أشرف عليها فردناند ألكييه، في موضوع: سبينوزا ومسألة التعبير (et le problème de Spinoza l'expression).في 1969 كان اللقاء مع فيليكس غوتاري (Félix Guattari) حيث شكلا ثنائيا أنتاجا معا أربعة كتب وانخرطا في مشروع عمل مشترك.في 1969 أصبح أستاذا بجامعة باريس الثامنة (l'Université Paris-VIII,) و تقاعد عن العمل في 1987 وفي .5 نوفمبر 1995 انتحر بعد معاناته مع المرض .

* فرديناند ألكاييه :كاتب و فيلسوف فرنسي (1906-1985)، جان هيبوليت : فيلسوف فرنسي (1907-1968)، جورج ويلهلم فريدريك هيغل :فيلسوف ألماني (1770-1831) ، رينيه ديكارت:فيلسوف فرنسي (1596-1650)، إيمانويل كانت: فيلسوف ألماني (1724-1804)، إدموند هيسرل :فيلسوف ألماني (1859-1938)، هايدغر مارتن : فيلسوف ألماني (1889-1976)، أفلاطون: فيلسوف يوناني (427-348 ق م).

2. Gilles Deleuze : Pourparlers.1972-1990, éditions Minuit, Paris, 2003, P.14.
3. Gilles Deleuze : Dialogues, éditions Flammarion ,Paris ,1977,P.18-19.
4. Ibid, P.21.
5. Gilles Deleuze : Deux Régimes de Fous .Textes et Entretiens 1975-1995.éditions préparée par David Lapoujade . Éditions Minuit. Paris 2003. P 280
6. Gilles Deleuze : Dialogues, op.cit, P.16

* باروخ سبينوزا : فيلسوف هولندي(1623-1677)، دافيد هيوم: فيلسوف اسكتلندي (1711-1776)، هنري برغسون (1859-1941) فيلسوف فرنسي، جورج باركلي :فيلسوف إرلندي (1685-1756)، فريدريك فيلهيلم نيتشه : فيلسوف ألماني (1844-1900)، مارسيل بروست : كاتب فرنسي (1871-1922.

7. Gilles Deleuze : Pourparlers, op.cit, P15.
8. Gilles Deleuze :Empirisme et subjectivité .Ed. P.U.F. 5 éditions, Paris, 1993.P.13 .
9. Gilles Deleuze : Spinoza .Philosophie pratique .éditions Minuit .Paris .2003.P. 39
10. Gilles Deleuze : Nietzsche, Ed. P.U.F, 14eme éditions, Paris, 2011,P.18.
11. Gilles Deleuze : Dialogues, op.cit, P.22-23.
12. Gilles Deleuze : L'île déserte et autres textes. Textes et entretiens 1953-1974(Édition et préparée par David Lapoujade) Paris : Éditions de Minuit, 2002, P.193.
13. Gilles Deleuze : Pourparlers, op.cit, P.186
14. Antonioli Manola : Deleuze et l'histoire de la philosophie .éditions Kimé, Paris, 1999,P.07.
15. Zourabichvili François : Deleuze ,une philosophie de l'événement , éditions Puf , Paris, 1994, P.05.

يقول دولوز في هذا الشأن : "لقد سددت ديوني ، نيتشه وسبينوزا برءاني، ثم كتبت لحسابي الخاص ،" أي كتب في تاريخ الفلسفة لما كانت تقاليد الفلسفة تفرض عليه ذلك حينذاك ، لكن بصورة مغايرة ، لقد برءاهُ نيتشه و سبينوزا من تهمة الانتماء إلى تاريخ الفلسفة الميتافزيقي، في: Gilles Deleuze : Dialogues, op.cit, P :22-23.

16. Gilles Deleuze : Deux Régimes de Fous, Op.cit, P. 280.

فيليكس غوتاري : محلل نفساني و فيلسوف فرنسي (1930-1992).

17. Gilles Deleuze : Pourparlers, , Op.cit, P.187 .
18. Dekens Olivier : La Philosophie Française Contemporaine .Édition ellipses. Paris 2006,P. 69.

إوالد كريستيان فون كلايست : شاعر ألماني (1715-1759)، فرانز كافكا :كاتب تشيكي يهودي كتب باللغة الألمانية (1883 .1924).

19. Gilles Deleuze : Pourparlers, , Op.cit, P.187.
20. صفدي مطاع : الفلسفة إبداع المفاهيم ، تصدير الترجمة العربية لكتاب ما هي الفلسفة ؟، في جيل دولوز. فليكس غيتاري: ما هي الفلسفة، ترجمة مراجعة و تقديم مطاع صفدي و فريق مركز الإنماء القومي ، مركز الإنماء القومي ، بيروت ، لبنان،المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ،المغرب ، ط 1، 1997، ص . 13.
21. Gilles Deleuze : L'île déserte et autres textes, Op.cit, P. 193.
22. Gilles Deleuze : Pourparlers , Op.cit, P.203.
23. Clet Martin –Jean : La Philosophie de Gilles Deleuze .éditions petite Bibliothèque Payot, Paris, 2005, P.203

ميشال فوكو : فيلسوف فرنسي .(1926 - 1984).

الايبستيمي: (L'épistémè): "هي مجمل العلاقات التي يمكن اكتشافها بين العلوم في وقت معين، عندما نحللها على مستوى الانتظامات الخطابية " في: فوكو ميشال، حفريات المعرفة، ترجمة سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، (د ط) ، 1986، ص. 176.

24. Gilles Deleuze : Deux Régimes de Fous , Op.cit, P. 339.
25. Gilles Deleuze : Pourparlers, Op.cit, P.P :202-205.
26. Gilles Deleuze : Différence et Répétition . PU F. Paris . 11éditions, 2003, P .172.
27. Gilles Deleuze : Proust et Les Signes, 3 ème éditions, Quadrige- P.U.F , Paris, 2006. P. 115.
28. Gilles Deleuze : Différence et Répétition, Op.cit, PP : 175.
29. Ibid, P.180.
30. Ibid .P.179.
31. - Ibid, P.199-200.
32. البعزازي بشير : الفرق و الإبداع في الكتابة الدولوزية: من صورة الفكر إلى فكر بدون صورة ، ضمن جيل دولوز ، سياسات الرغبة، سلسلة أوراق فلسفية، الفكر المعاصر، دار الفارابي، بيروت، ط1 .2011. ص ص :333-334.
33. المرجع نفسه ، ص 334.
34. الحسناوي مصطف : دولوز حياة فلسفية، مجلة أبواب، دار الساقي، بيروت، العدد 29. 2001 ،ص .59.
35. Gilles Deleuze : Proust et Les Signes Op.cit, PP : 23-24.
36. Gilles Ibid, P .25.
37. Ibid, P.10.

*ديونيزوس وأبولون (Apollon) (**Dionysos**) إلهين في الميثولوجيا اليونانية .

38. Gilles Deleuze : Différence et Répétition, Op.cit, P.337-338.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

www.manaraa.com